

فاوست غوته، النشأة، التطور

Goethe's Faust: Genesis and Development

أ.د. عمّار رجال*

جامعة باجي مختار — عنابة (الجزائر)، redouane.net10@gmail.com

تاريخ النشر 2023.05.05

تاريخ القبول 2023.03.20

تاريخ الوصول 2023.01.17

الملخص:

يعتقد الكثير من الباحثين أنه لا توجد أسطورة حظيت بما حظيت به أسطورة فاوست بعد (أوديب) من معالجة في أكثر حقل من حقول المعرفة، فغوته غطى على السابقين وصعب من مهمة اللاحقين، فهو عرض لجميع جوانب المأساة البشرية، وهذا لم يأت صدفة بل بعد معاناة تجاوزت النصف قرن، وقف خلالها على عوامل كثيرة ساهمت إلى حد بعيد في خلود مسرحيته (فاوست) بدءا بنشأت الفكرة وهو طفل صغير وصولا إلى قمة تطور الفكرة لديه وبلوغها غاياتها السامية الخالدة.

الكلمات المفتاحية : فاوست غوته، النشأة، التطور

Summary:

Many researchers believe that no myth has had the same treatment as the legend of Faust after (Oedipus) in more fields of knowledge. More than half a century, during which he stood on many factors that contributed greatly to the immortality of his play (Faust), starting with the origination of the idea when he was a young child, all the way to the peak of his idea's development and its attainment of its sublime and immortal goals.

key words :Goethe's Faust, Genesis, Evolution1 – نشأة الفكرة:

لم يكن اهتمام غوته بموضوع فاوست وليد صدفة أو رغبة عابرة. بل هو موضوع ظل يتشكل ويتطور ويكتمل طيلة ستين سنة، وبالتالي لا مكانة للصدفة فيه أو الرغبة العابرة، بل هناك عبقرية صقلتها عوامل مختلفة لتخرج لنا رائعة "فاوست" وكان أول هذه العوامل الذي لفت انتباه غوته إلى موضوع فارست هدية جدته بمناسبة عيد ميلاده الرابع، حيث أهدته مسرحا للعرائس كانت تتولى إدارته، ومن بين القطع التي كان يحتويها قطعة عن الدكتور فاوستوس التي لم يخف تأثره الشديد بها⁽¹⁾.

* المؤلف المرسل : أ.د. عمّار رجال redouane.net 10@gmail.com

ظلت هذه القطعة تكبر مع الطفل ومعها تكبر أحلامه وتجاربه ومغامراته، حتى بلغ به الأمر أن يضفي عليها كثيرا من إنشغالاته وتصوراتهِ وطموحاتهِ، فهو أدرك ما تنطوي عليه أسطورة فارست من مواضيع مختلفة وفنون هائلة.⁽²⁾ أما ثاني هذه العوامل فتجربته الغرامية التي هزت كيانه في سن الخامسة عشرة، إذ أحب فتاة تكبره سنا وتصغره مكانة تدعى "مارغريت"، (وهو الاسم الذي وظفه في الجزء الأول من مسرحيته) ولم يجد معها من حيلة إلا أن ترك العنان لقلبه يستفيض في الحديث عنها كاشفا عما خلفته من آثار عميقة في قلبه ومن معاناة طويلة في وجدانه.⁽³⁾ كان عزاءه في ذلك الاستمتاع بمشاهدة فاوست على خشبة المسرح. انكب غوته على قراءة كل ماله علاقة بموضوعه موسعا استشاراته، منوعا مصادره، منغمسا في تأملاته... إلى أن جاءت الحادثة التي دفعت بالموضوع ليعرف قفزة متميزة، إنها معاناته مع مرض خطير ألم به سنة 1768 كاد يودي بحياته، وتطلب علاجه مدة طويلة تمكن فيها اليأس من قلبه، إلى حد أصبحت لديه الحياة صورة سوداوية قاتلة تدفع بالمرء إلى الموت إذ فكر فعلا في الانتحار ولم يجد سبيلا للخروج من هذه المحنة إلا الانغماس في ذلك الجو ألتهويلي الذي كانت أمه تحيا فيه بتأثير من قرية تدعى "سوزانا كترينا" الصوفية النزعة، المهتمة كثيرا بعالم السحر والشعوذة والعلوم... إنها الأجواء التي أحبها غوته وكانت عاملا حاسما في استعادة توازنه الفيزيولوجي والنفسي، وعليه انصرف إلى التأمل الداخلي والصوفية الذاتية، وتعاطي الكيمياء واقتحام عالم الفلسفة التنجيمية ومثلها علم الفلك.. إنها قواعد صرح فاوست بدأت تثبت أركانها⁽⁴⁾. استعاد إذن كاتبنا حيويته و"دراسته بمدينة "ستراسبورغ" وتفتقت موهبته الشعرية، ومعها كبر مشروع فاوست، فها هو نهاية 1769 من خلال مسرحيته "الشركاء" يعلن صراحةً بأن هذا الموضوع يشغل حقا باله، ليتحول هذا الاشتغال سنة 1771 إلى صرخة مدوية بأن " فاوست يهز كيانه وطنينه لا يفارق أذنيه.⁽⁵⁾

أخذ موضوع فاوست في السيطرة على كيانه الكاتب، بل أصبح هاجسا يعكر صفو أيامه ويدفعه إلى القيام برد فعل ما، وفعلا حاول الكاتب ذلك من خلال بعض الإبداعات المتنوعة خاصة منها مسرحية "جيش فون برلشنجن".⁽⁶⁾ كان غوته يشعر بأن صدره ضاق بما يفتعل داخله من أحاسيس وصراع رغبات... فافتنع بأن الإبداع سبيل لانسراح الصدر، والكتابة خير وسيلة يمكن للتناقضات أن تتعايش فيها، فها هو في رسالة بعث بها إلى صديقه "هردر" 1772 يقول:

" إني أدعو الله كما دعاه موسى في القرآن: " ربي اشرح لي صدري"⁽⁷⁾ إنها ملامح صورة فاوست بدأت تلوح في الأفق.

2- تطور الفكرة:

عرف غوته بشخصيته التوافقية إلى المعرفة والعلم وحب الاستطلاع والمغامرة.. كان حريصا على أن يستمتع بكل لحظة يعيشها أو يتأمل فيها.. يريد من طموحه أن يبلغ الممكن والمستحيل في الوقت نفسه، واقتنع بأن السبيل إلى ذلك هو الغوص في أسرار الحياة، لم يكن ليفوت فرصة دون أن يأخذ منها شيئا سواء أعلق الأمر بالقراءة أو الإبداع أو الحب أو الجمال أو الطبيعة أو الناس، بل بلغ به الأمر أن يجعل من أحلامه جسرا يعبر منه إلى غاياته، كما أفاد كثيرا من علاقاته المختلفة بدءا بالعائلة مروراً بمغامراته الغرامية ومثلها علاقاته في الجامعات أو من خلال ممارسته لمهنة المحاماة.. كما تفاعل كثيرا مع أحداث عصره وما عرفه من تحولات جوهرية بدأت تهرز أركان المجتمعات الأوروبية من أجل عالم جديد يسوده الأمل والتفاؤل والتسامح ويحكمه قانون العمل والواجب.. إنها الأنوار التي بدأت تشع من كتابات "لسينغ" Lessing وأتباعه "معلنة التغلب على وصاية الفكر الذي مارسه الكنيسة ومارسه اللاهوت، رافعة العقل (العقلانية) والحواس (الحسية) والتجربة (التجريبية) إلى مرتبة مصادر المعرفة المقصورة عليها.. فما لا يثبت للعقل ينبذ على أنه خطأ، ورأي مسبق، وخرافة".⁽⁸⁾ إنها الأفكار التي بدأت تسيطر على عقل الكاتب، تتزاحم فيما بينها إلى حد التصادم محاولة رسم الخطوط الأولى لمسرحية فاوست، غير أن هذه الأفكار التي نتحدث عنها كانت بمثابة جمع المادة إذ مكنت الكاتب فقط من صهر كل ما عايش ورأى وقرأ وسمع.. في بوتقة فكره، وعليه لا بد من بذل المزيد، ففاوست لا تحده حدود: فجوعه لا يشبعه "قوت" الأرض وأحلامه لا توقفها أسرار السماء، لأنه ببساطة ينشد الحياة بل الوجود والكون. كل هذا لا يمنعنا من الوقوف عند محطات ثلاثة كان لها الأثر الكبير في تطور فاوست وتجسيدها:

أ- الذهاب إلى "فايمار":

كان الذهاب إلى "فايمار" عام 1772 منعرجا حاسما أولا في حياة غوته الأدبية والفكرية انه اتخذها مقرا له حتى وفاته عام 1832، بما نمت فكرة السيطرة على الحياة خاصة وقد توفرت كل الوسائل لتحقيق ذلك فهي هو "كال أو غست" دوق وحاكم فايمار يعينه مستشارا شخصيا له ويمنحه كل الصلاحيات والامتيازات للنهوض بهذه المقاطعة، فجأة وجد الكاتب نفسه أمام تجارب ومواقف لا عهد له بها، فتحت موهبته وأثرت فكره، فهو بحكم واجباته التي لا حصر لها، غاص في عالم المناجم والري ومشاريعه والجيش وتقاليده وقوانينه، والاقتصاد ونموه وتسييره، والسياسة وتقلباتها، والحب وتحقيقه للتكامل النفسي... إنه العالم الذي سينقلنا إليه الكاتب مطالعا إيانا عن كثير من أسرار. لم تمنعه هذه المسؤوليات من الاستمتاع بطعم الكتابة وحلاوة الحب، فبهما يطمئن قلبه وتسعد نفسه. لقد أجمت هذه المدينة نار الحب والعشق في قلبه، وألهبت رغباته من خلال مغامرات مع كثير من الجميلات تشهد عليها الآلاف من الرسائل والقصائد الغرامية؛ كفت فيها الطبيعة عن أن تكون مجرد انعكاس لمزاجات الإنسان، بل لتغدو شيئا موجودا في حد ذاته أو قوة غير مبالية بالإنسان وحتى معادية له.⁽⁹⁾ إن أجمل ما

يحققه الإنسان في حياته هو المعرفة، فهي وحدها قادرة على أن تمنح الحياة معاني، وقد منحت "فايمار" الكاتب معارف وتجارب، وأدخلته عوالم ربما كان يصعب عليه ولوجها. وصفوة القول إن لمدينة "فايمار" فضل كبير على الكاتب ومسرحيته "فاوست" إذ شكلت العالم الأول لهذا البناء، بل لهذا الصرح العجيب.

ب-الرحلة إلى إيطاليا:

اقتنع غوته بأن المادة لوحدها غير كافية لإقامة بنائه، فهي بحاجة إلى تشكيل فني وجمالي يصون هذا البناء، من هنا كان لزاما ترك هموم الدولة ومشاغليها والتخلي - ولو إلى حين- عن الواجبات الإدارية وغيرها في سبيل البحث عن المفتاح السحري الذي يجسد الغاية ويحقق الهدف، وسمع صوتا يناديه ليمنحه هذا المفتاح: إنها إيطاليا الفن والجمال، فشد الرحال إليها عام 1776. كانت بمثابة ولادة جديدة ومنعرج حاسم ثان بعد "فايمار"، قصدها منشدا تجديد ذاته كإنسان وفنان معا، مطلقا نابذا حماقات ادعاها ذات يوم من مثل: ما الفائدة من الحرية الزائدة إذا كنا لا نستطيع أن ننتفع بها؟ إنه متعطش "فلورنسا" مدينة الورد ومثلها "روما" عاصمة العالم القديم، ومن خلف ذلك كله ما هو إغريقي وهومييري. إنه الآن يستمد حسا جديدا بالشكل، ما فتى أن ظهرت بصماته واضحة وآثاره جلية في تحفها التي استقطبت اهتمام الجميع على غرار "إغمونت" و"إفيجيني" و"ولهم مستر"... وجميعها ساهم بطريقة مباشرة في تلقيح بذرة الشجرة الكبيرة، شجرة النفس البشرية، شجرة فاوست، وهاهي بعض أغصانها بدأت تورق مبشرة بميلاد تحفة قل نظيرها. وهكذا يكون كاتبنا قد اهتدى إلى الشكل الذي يليق برأئته، وتمكن من السيطرة على أدواته، فلا شك إذن في أن إيطاليا هي من زوده بالفن القديم وفن النهضة، وهي من غير نظرتة إلى أدب الشمال وأدب الجنوب، فقد "كتب جيته وهو في روما مشهدا جديدا من "فاوست"، كتبه وهو في مكان من أجمل أماكن روما، وهو حديقة فيلا بورجيزي... VillaBorghese.

إن هذا المشهد هو مشهد "مطبخ الساحرة"... والمشهد الثاني الذي كتبه إبان رحلته إلى إيطاليا هو الذي عنوانه "غابة وكهف" وفيه مناجاة من أجمل ما نظم جيته ومن أروع القطع الشعرية في تاريخ الأدب العالمي⁽¹⁰⁾. وعليه يحق لنا القول بأن إيطاليا ألهمت الكاتب أجمل ما لديها من صور عن طيب خاطر لأنها رأت فيه الفنان الفذ الذي يتقن التعامل مع كل ما هو جميل وساحر، وهل يغيب عن الكاتب ردّ الجميل إذ منحها حضورا متميزا من خلال قصورها ومآثرها، وحضارتها، وإرثها للفكر العالمي، وكنائسها، وباباواتها... فهي حقا لبنة أساسية في مسرحية فاوست بكل أبعادها.

ج- تأثير "هردر" و"شيلر" (HERDER, SCHILLER):

لقد أكدنا سابقا على أن غوته أفاد كثيرا من علاقاته مع غيره من الكتاب والفلاسفة والعلماء والسياسيين... ولكنه أفاد بوجه خاص من علاقاته بأصدقائه المبدعين من أمثال "هردر"، و"شيلر"، فمن هذا الأخير "تعلم غوته الدور الذي تلعبه اللمسة الأخيرة وحس التداخل في نمو العقل، ونظرة جديدة للفنان كخالق يبدع أشكالا تعبر عن الشعور، ونظرة أخرى في الشعر باعتباره لغة الإنسان الأصيلة والأكثر حيوية وأهمية" (11)، يعود الفضل إذن في تمكين الشاب المبدع من السيطرة على الشكل والذات إلى "هردر" العالم في نظريات اللغة والأدب، المنتصر للحيوية الشعبية وعبقريتها على حساب الكلاسيكية، والمتنمر على أستاذه الفيلسوف المتميز "كانت" Kant فيما له علاقة بفلسفته حول الطبيعة ورؤيته للتاريخ (12).

وجد غوته في صديقه "هردر" قوة دافعة، وعقلا نيرا أضاء طريقه، وفكرا مبسطا لكل ما استعصى عليه؛ وكيف لا وهو الذي غاص في عالم الفيلسوف "فرنسيس باكون" (F.Bacon) متأملا في موقفه من الإلحاد والخرافة والجمال إلى الموت والصدقة وعظمة الممالك والدول... ومثله عالم "جون لوك" (J. Locke) القائم على التركيب الذي يستطيعه العقل انطلاقا من ممارسة الحواس، والثورة على كل عائق ديني من خلال "رسالة في التسامح" أو "المسيحية المعقولة"... مروا بـ "ليبنز" (Leibniz) وموقفه المشهود "الله هو العلة الأولى للأشياء"... و"سبينوزا" (Spinoza) وانتقاداته التاريخية والفلسفية والاجتماعية للمعتقدات والمؤسسات الدينية. والقتال بأن الدنيا مهما تتغير يبقى في كل تغيير شيء دائم خالد هو عنصر الكمال والجمال الذي يتجلى فيه الإله إن "هردر" هو إحدى الجسور العملاقة التي من خلالها عبر غوته عوالم عديدة: كعالم الطبيعة والتاريخ واللاهوت والأدب واللغة والفن والجمال... عوالم كم أحبها فاوست وعشقها وسعى إليها عن طيب خاطر أحيانا، ومتحديا مغامرا أحيانا أخرى، فبفضله كبرت أحلام فاوست ومعها قويت إرادته واشتدت عزيمته...

أما علاقته بصديقه "شيلر" فبصمائه واضحة في مسرحية فاوست، فمنه تعلم غوته بأن رقي الإنسانية لا ينجم عن العنف، والانقلاب السياسي والاجتماعي، بل عن الجهد الفردي نحو الجمال والخير، ألم يمت فاوست على هذه القناعة؟ نعم، لقد مات فاوست مقدسا العمل معتبرا إياه سبيل الخلاص والتكفير، سبيل معرفة الإنسان بحقيقة نفسه؛ أليس هو الذي رفض خلودا أبديا لا عمل فيه ولا واجب! قد لا نبالغ كثيرا عندما نقول بأن "شيلر" هو من أكمل فاوست: فغوته كغيره من العباقرة، عرف في حياته تقلبات كثيرة من حيث المواقف والمبادئ والرؤى... أملت أحيانا مراحل وظروف الحياة، وأحيانا أخرى المسؤوليات والتجارب والتحصيل المعرفي... شغله فاوست منذ صغره وبقي ظله الذي لا يفارقه في مراهقته وشبابه، في تمرده واندفاعه... حتى تشكل أخيرا في صورته الأولية والتي أسماها غوته بـ "الشذرة" Fragment عام 1790. لكنه الآن قد جاوز الأربعين، وتغيرت نظرته إلى الحياة والناس والكون.. فقد علمته "فايمار" الحكمة والقانون والحذر... وبشت فيه إيطاليا حب الاعتدال

والفن... وبالتالي لم يعد موضوع فاوست يليق بالمرحلة التي انتقل إليها، ومن ثمة وجب نسيانه. علم "شالر" بذلك بعد أن اطلع على "الشذرة" وراح يشجع صديقه على مواصلة العمل لأن هذه "الشذرة" تبشر بعمل أدبي رائع إن هي تطورت واكتملت، فيها مشاهد لا تستطيع أن تفكر فيها إلا عبقرية من طراز عبقرية شكسبير (Shakespeare).⁽¹³⁾

ومع ذلك ظل غوته يشعر بأن ليس لديه-الآن- أي استعداد لمواصلة العمل في فاوست، لكن ما عساه هذا الشعور أن يفعل أمام إلحاح "شالر" وإصراره، فسعادته في أن تنمو تلك "الشذرة". استجاب غوته لرغبة صديقه، فما هو يبعث له بتاريخ 22 يونيو سنة 1797 رسالة يقول فيها: "لقد صممت على استئناف العمل في فاوست وإنجاز قسم كبير منه على الأقل، إن لم أستطع إتمامه كله، وذلك بأن أفكه من جديد وأنا على وفاق من نفسي. وأود منك الآن أن تتفضل فتتظر مليا في هذا الأمر خلال ليلة ساهرة، وأن تعرض علي ما ترى أن الأمر يقتضيه، وأن تفسر لي أحلامي بوصفك نبيا صادقا".⁽¹⁴⁾

لم يتوقف الحديث بين الصديقين عن فاوست، واقتنعا بأن الأمر فلسفي وشعري معا من خلال التغني بالحياة الفعلية المتمثلة في جر البطل إلى بحر الحياة العملية المتلاطم حتى يقف عند تصرفات الإنسان أمام الكون والناس والأشياء، وقبل ذلك "فكرة العقل" أي تاريخ العقل للإنساني وهو ينشد المعرفة. واكتملت الصورة أخيرا عند الشاعر وطفح معها إلهامه الشعري الذي راح ينشد أروع الأشعار ويرسم أجمل الصور.. لبطل تجاوزت طموحاته المستحيل، وجابت مغامراته الأرض والسماء، عرف معها النعيم والجحيم: إنها مسرحية فاوست التي تفتخر بفضل كلمن "هردر" و"شالر" في تنبيه الكاتب واستنهاضه، بل تعترف بأحدهما من أولياء نعمته.

تلك معالم واضحة ومقاصد بينة وعوامل مباشرة ساهمت في نشأة فكرة فاوست وتطورها، وما من شك في أن عوامل أخرى ساهمت في تشكيل هذه التحفة على مدار ستين سنة.

الهوامش:

1- جيتة، فاوست، الجزء الأول (المقدمة)، ترجمة وتقدم د. عبد الرحمن بدوي، وزارة الإعلام، الكويت، د.ط، 1989، ص 63-64.

2- Marcel. Brion, Goethe l'âme du monde, éditions du Rocher, Monaco, 1993 P 155,156.

3- عبد الرحمن بدوي، فاوست، المقدمة، ص 64.

4- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

- انظر أيضا:

Genevieve Banquis, Faust à travers quatre siècle, Edition Montaigne, Paris P : 71

5- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

6- عبد الرحمن بدوي، فاوست، المقدمة، ص 65.

7- د. علي حسن، ثلاثون عملا من الأدب الألماني، دار الهلال، القاهرة، د.ط، 2001، ص 421

- 8- صياح الجهميم، تاريخ الآداب الأوربية، تأليف مجموعة من الكتاب، ثلاثة أجزاء، منشورات وزارة الثقافة، سورية، د.ط، 2002، الجزء الثالث، ص 106.
- 9- هاني الراهب، يوهان فولفغانغ غوته، مجلة الآداب الأجنبية، العددان 30 و31، السنة الثامنة، 1982، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ص 286.
- 10- عبد الرحمن بدوي، فاوست، المقدمة، ص 68-69.
- 11- هاني الراهب، يوهان فولفغانغ غوته، مجلة الآداب الأجنبية، ص 283، (مرجع سابق).
- 12- Petit Robert. Dictionnaire Universel des noms propres, Edition Dictionnaires Robert, Paris, 1990, P 832.
- 13- عبد الرحمن بدوي، فاوست، المقدمة، ص 74-75.
- 14- المرجع نفسه، ص 75.

المصادر والمراجع :

- 01- جيتة، فاوست، الجزء الأول (المقدمة)، ترجمة وتقديم د. عبد الرحمن بدوي، وزارة الإعلام، الكويت، د.ط، 1989
- 02- د. علي حسن، ثلاثون عملاً من الأدب الألماني، دار الهلال، القاهرة، د.ط، 2001،
- 03- صياح الجهميم، تاريخ الآداب الأوربية، تأليف مجموعة من الكتاب، ثلاثة أجزاء، منشورات وزارة الثقافة، سورية، د.ط، 2002.
- 04- هاني الراهب، يوهان فولفغانغ غوته، مجلة الآداب الأجنبية، العددان 30 و31، السنة الثامنة، 1982، اتحاد الكتاب العرب، دمشق.
- 05- Petit Robert. Dictionnaire Universel des noms propres, Edition Dictionnaires Robert, Paris, 1990.
- 06- Marcel. Brion, Goethe l'âme du monde, éditions du Rocher, Monaco, 1993
Genevieve Banquis, Faust à travers quatre siècle, Edition Montaigne, Paris